

الاختيارات الشعرية وشروحها والنقد الضمني

د. منصورى عبد الوهاب

جامعة سيدى بلعباس

عرف القرن الثالث الهجرى ظاهرة نقدية أدبية مهمة ارتبطت ارتباطا وثيقا بالنقد وهي ظاهرة (الاختيارات الشعرية) فالاختيار الشعري في الأصل عمل نقدي يقوم على أسس بلاغية وبيانية، إذ إن اختيار قصائد محددة وطرح غيرها، إنما هو حكم نقدي ضمني بمجودة المختار، فاختيار الأشعار هو النقد ومعيار الاختيار هو البلاغة .

اختار أبو تمام من المدونة العربية ديوانا سماه ديوان الحماسة، وتنم طريقته في اختياره الأشعار عن خبرة فائقة ومعرفة حقيقية بالشعر. ومع ذلك بقي السؤال مطروحا عن المقاييس التي اعتمدها أبو تمام في اختياره، ألا يعد عمله من صميم العمل النقدي ؟ إن ((المتخير ناقد حتى وإن وقع في أقصى حدود النقد التي تفصله عن القراءة العادية، إنه ناقد يقوم عمله على إصدار حكم دون تفسيره تفسيرا شافيا أو دون تفسيره أصلا))³⁸ إن أبا تمام وهو يختار ديوانه يكون قد فتح بابا واسعا للتأمل والجدل، كما كان الحال مع شعره. لقد أضفى هذا الاختيار غموضا لا يقل عن غموض شعره و((لا أظنني متجاوزا إذا وصفت خلفية اختيار الحماسة بأنها نص غائب يحتاج - ككل النصوص العميقة - كشفًا وجلاء))³⁹ كان أبو تمام على الرغم من صراعه الدائم مع النقاد المحافظين الذين رفضوا شعره وحاولوا التقليل من قيمته مستندين إلى أنموذجهم ساعين إلى تقييده لدى العامة إلا أن هؤلاء سرعان ما ((كانوا يتحولون سريعا إليه بعد أن وجدوا فيه شخصية عصرهم

المتحضر والمثقف فشعر أبي تمام يغذي الذات التي لم تعد بسيطة ترضى بالعبير وإنما أصبحت بالانفتاح على الثقافات والحضارات الأخرى توافقه إلى تحفيز الفكر والانفعال والخيال معا إلى الحركة عبر عالم من المتناقضات والمتضادات المتألقة في جدلية قوليه وفعليه وهذا ما كان شعره يوفره لها، لقد حقق ما قاله هيرمان عن الشعر المدهش الذي يخلق عالما جديدا تكون فيه الأشياء متنافرة ومتشابهة في الوقت نفسه⁴⁰ وهو الأمر الذي جعل ديوانه الحماسة يشغل الكثير من النقاد قراءة وشرحا.

قام بهذه المهمة جمع كبير من الشراح، يأتي في مقدمتهم المرزوقي في عمله الضخم والمتميز (شرح ديوان الحماسة)، إن الاختيار الذي قدمه هذا الشاعر الناقد لا ينفصل ((عن الإنتاج الشعري لأبي تمام ويطرح نفس المشاكل التي يطرحها شعره، إننا نعرف ردود الفعل القوية للخبيرين وخصوصا ابن الأعرابي من شعر أبي تمام، ويمكن القول إن هذه المسألة قد سيطرت على الخطاب النقدي مدة ما يقرب من قرنين أثارت مواجهات عنيفة، كما ألهمت كتابا أساسيا مثل الموازنة للآمدي وهذه حالة نموذجية لأثر يرغم النقد على التحليل))⁴¹ بعد أن أصبح النقاد يبحثون في الشعر القديم عن أمثلة لما جاء به أبو تمام الذي شغلهم وأتعبهم وجعلهم يفتشون وينقبون ويوازنون، لعلهم يهتدون إلى أشياء مشابهة للقديم فيستريحون، ولكن معظم هؤلاء قد تربوا على ذوق معين، كان هو المسيطر والمانع في الوقت نفسه من عدم الفهم لأن شعر أبي تمام كان على ((الأخص الثورة الأكثر جذرية على صعيد اللغة الشعرية بالمعنى الجمالي الخالص ويمكن أن نوجز ملاحظاتها في :

استخدام الكلمات بطريقة أصبحت معها توجي بأكثر من معنى لأنه أفرغها من معناها المؤلف، فلقد خلصها من الحتمية وأسلمها للاحتمال وهذا مما حير قراءه (سامعيه) وأدى إلى الاختلافات في تفسير شعره⁴² فلا عجب أن يتهموه بالسرقه مرة وبالخروج عن عمود الشعر مرة أخرى، ولذلك فهم ((لا يحددون فقط قواعد الشعر بل إنهم يصدرون بشكل ما مراسيم تعيين حدود المغامرة الشعرية ونهايتها))⁴³، فيصير مجال حرية الشعر ضيقا ضيق أفقهم.

لقد أرغم الشعر الجديد الخطاب النقدي على إبداء الرأي فيه، وما كتاب الموازنة والوساطة إلا نموذجان يحاولان دراسة هذا الشعر وموازنته بالشعر القديم، لذلك كان الشعر في كل فترة المحرك الأساس للدراسات المتلاحقة التي تضيف لسابقتها قيمة فنية وجمالية تستكشف من النصوص الشعرية.

كنا قد لاحظنا فيما سبق كيف أن الشعر أنتج المفاضلة بين الشعراء التي خلقت بدورها حيرة نقدية أفضت إلى الطبقات ثم الموازنات المنهجية فالاختيارات الشعرية مما جعل ((النظرية الشعرية القديمة شديدة الوطأة على القدماء: شعراء ونقاد: على الرغم من أن هذه النظرية جماع الجهود المتواصلة التي مارسها الشعراء: إبداعا، والنقاد: تمييزا وتقنيا، لكنها - وهي نتاج لهم - أضحت شديدة الوطأة عليهم))⁴⁴ ثم إن الاختيارات الشعرية قادت إلى ظاهرة الشروح التي تعد بدورها عملا نقديا ضمنا، حيث إن الشارح لم يكن يكتفي بالتعليق والتفسير فقط وإنما بالشرح والنقد والموازنة والحكم.

كان ديوان الحماسة يحمل بين دفتيه نصوصاً ومقطعات مختارة بحس فني ونقدي كبيرين، حيث الاختيار صدر من رجل متمرس وخبير وشاعر مقتدر، لذلك احتاجت هذه النصوص المختارة إلى قراءة فاحصة ودقيقة. فالنصوص المتميزة والآثار المهمة هي التي تحتاج وحدها إلى ((قراءة خلاقة تتجاوز المنصوص عليه والمنطوق به ولهذا فإن مهمة القارئ - الناقد - أن لا يؤخذ بما يقوله النص، مهمته أن يتحرر من سلطة النص لكي يقرأ ما لا يقوله، ولكن انطلاقاً مما يقوله ويسبب ما يقوله فالنص يحتاج إلى عين ترى فيه ما لم يره المؤلف وما لم يخطر له))⁴⁵. وهو الأمر الذي حاوله المرزوقي في قراءته لديوان الحماسة. فقد استفرغ فيه طاقته وهو يديم النظر في نصوصه التي أوصلته إلى نظرات مهمة في اللغة والأدب والبلاغة والنقد لأنه ببساطة كان يتميز بحس نقدي عال.

يدخل العمل النقدي الذي قام به المرزوقي في خانة النقد التطبيقي للشعر وهو عمل فني ضخم استفرغ فيه جهده وطاقته حتى جاء شرحه ذا مذاق خاص والمتأمل لمقدمة شرحه ((يستوقفه فيها مطارحات المرزوقي النقدية ويروعه ما أثاره من قضايا نقدية ما يزال بعضها - إلى يومنا الشاهد - مراداً للنقاد المعاصرين وكأن المرزوقي نظر بمد البصر إلى عدد من القضايا يمكن أن تكون مثاراً أو مجالاً لتباين الأنظار فيها فكان تركيزه عليها))⁴⁶ وقد وجدت صداها فيما بعد.

إن النقاد العرب ومنهم المرزوقي ((كانوا يرجعون في تقديمهم التطبيقي للشعر إلى أصول عامة يطمثون إليها عند تدقيقهم للأدب ونقده ويعتمدون عليها في تمييزهم للأساليب ومعرفة الجيد والردىء منها. ومن المسلم به أن النقاد لا يختلفون النظريات من العدم، وإنما يستوحونها من الأعمال الأدبية

المخالدة))⁴⁷ لذلك كان التركيز شديدا على المدونة الشعرية العربية في استنباط الأحكام والقيم الجمالية فقد رجع النقاد ((في نظراتهم النقدية إلى أصول الشعر القديم كما جاء عن أوائل الشعراء لأن هؤلاء في نظرهم هم الذين نضج عندهم فن الشعر عربيا خالصا قبل أن تغزو روافد الثقافة الأجنبية العقل العربي))⁴⁸ فصار الشعر تبعا لذلك مفتوحا لكل القراءات القادرة على محاورته ثم إصدار الأحكام واستنباط القواعد، فعند قراءة عمود الشعر يبدو المرزوقي ساعيا ((إلى إعادة إغلاق هذا الملف حول محاكمة منصفة ويدوره سيئجه جاهدا ما أمكنه لتدقيق مفهوم عمود الشعر بالإحالة على التحديد الذي سبق أن قدمه علي بن عبد العزيز الجرجاني في الوساطة، فحول هذا المفهوم تدور المعركة التي ترغم المنظرين على تجاوز الأوصاف الغامضة للقرنين الثاني والثالث لكي يصلوا إلى تنظير حقيقي للكتابة الشعرية))⁴⁹ تتبع الظاهرة في مختلف تحقيقاتها.

كان الشعر ديوان العرب، فلا عجب أن يعد مدخلا إلى حفظ القرآن الكريم وكيف لا وقد كان الشعر كما يقول ابن سلام علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه⁵⁰ لذلك وجدنا النحاة الأوائل لما بدؤوا في بنيانهم النحوي كان اعتمادهم الأول على الشعر في الغالب الأعم ((ذلك لأن الشعر العربي الجاهلي أو الإسلامي كان في نظر النحاة منبعا يمد النحو بالحياة والنمو والحركة وعلى أساسه ملأت صفحات كتب النحو بالقواعد التي يعز حصرها ويصعب استيعابها))⁵¹ ولكن الملاحظة العجيبة هي أن الاستشهاد بالشعر لم يكن طاغيا في النحو فقط، بل تعدى ذلك إلى البلاغة والنقد. فالمادة الغزيرة التي يستشهد بها هؤلاء وأولئك هي الشعر. إذ لا يمكن أن يكون هذا الفن كغيره من الفنون الأخرى. فالشعر عند العرب أمر مقدس

ينظر إليه بإعجاب ودهشة واحترام وعليه فإن ((فنا كلاميا له هذا القدر من التأثير الفردي والجماعي في مختلف أمور الحياة، لم يكن ليتمر عند العرب القدماء دون أن يحظى بالقدر اللائق من العناية حفظا وتدوينا ورواية وتمحيصا، وكان النقد الأدبي واحدا من وسائل العناية التي أحاط العرب بها فن الكلمة والشعر على نحو خاص منذ أقدم ما وصلنا من تاريخهم))⁵² بل إن العرب صاحبهم الهاجس نفسه حتى اليوم ، وإن اصطغ بأشكال جديدة أو أنه صار متحققا بألوان مختلفة.

إن النقد الذاتي الذي كان الشاعر يرغم نفسه عليه - والمتمثل في الجهد الذي كان يبذله تجاه قصائده من تمحيص وتنقيح قبل أن يخرجها للناس وقد تبقى معه القصيدة حولا كاملا وهو يعيد فيها النظر متأملا كلماتها وصورها ولغتها - ، يدل على المنزلة التي احتلها هذا الجنس الأدبي في نفوس قائله ومستمعيه على حد سواء، هذا إلى جانب النقد الذي كان يصدر من الشعراء اتجاه الشعراء متمثلا في إبداء الملاحظات وإصدار الأحكام على نتاج بعضهم البعض.



الهوامش:

- ¹ محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، 1999 ص. 67
- ² عبد القادر الرباعي، في تشكل الخطاب النقدي / مقاربات منهجية معاصرة / الأهلية للنشر والتوزيع، 1998، ص. 106
- ³ المرجع نفسه، ص. 120 - 121
- ⁴ الشعرية العربية، ترجمة، مبارك حنون ومحمد الولي ومحمد أوراغ، دار توبقال، المغرب، 1966، ص. 38
- ⁵ أدونيس، الثابت والمتحول، بحث في الإلتباس والإبداع عند العرب، صدمة الحداثة، دار العودة، 1979، ص. 19
- ⁶ جمال الدين بن الشيخ، الشعرية العربية، ترجمة، مبارك حنون ومحمد الولي، ومحمد أوراغ، ص. 27
- ⁷ أحمد صبرة، شرح المرزوقي، النظرية والإجراءات، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002، ص. 7
- ⁸ علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، لبنان، 1993، ص. 21¹
- ⁹ فتحي محمد أبو عيسى، القضايا الأدبية والفنية في شرح المرزوقي لديوان الحماسة، دار المعارف، مصر، 1983، ص. 203
- ¹⁰ طه مصطفى أبو كريشة، النقد العربي التطبيقي بين القديم والحديث، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، 1997، ص. 120
- ¹¹ طه مصطفى أبو كريشة، النقد العربي التطبيقي بين القديم والحديث، ص. 120، 121
- ¹² جمال الدين بن الشيخ، الشعرية العربية، ص. 38
- ¹³ ينظر ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دار الأرقم بن أبي الأرقم، لبنان، 1997 ص. 24
- ¹⁴ عبد العال سالم مكرم، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، المكتبة الأزهرية للتراث، مطابع دار التراث العربي، مصر، 1995، ص. 329
- ¹⁵ أحمد درويش، التراث النقدي، قضايا ونصوص، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، 1998، ص. 9